جوامع المغرب ومساجده

بقلم: الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله

مجلة دعوة الحق العدد 232 - صفر 1404/ نونبر 1983

لعل أول بوثقة انصهرت فيها مع الأيام مظاهر الفن المعماري الشرقي المغربي هي مدينة فاس التي أقامها المولى إدريس عام 192هـ بالموضع المعروف بجراوة وقد أحاط عدوة الأندلس بسور فتح في جوانبه عدة أبواب وجهز المدينة بجامع للخطبة وهو (جامع الأشياخ).

وقد اتجه المرابطون خاصة نحو هندسة المساجد التي لم يعد يخلو منها ربض ولا زقاق لا سيما في فاس كما اهتموا ببناء القلاع على غرار الحصون الأصلية مع الاقتباس في آن واحد من الأندلس وأول ما تجلى هذا الاقتباس في فاس حيث استقدم يوسف بن تاشفين من قرطبة جملة من صناع طوروا مساجد المدينة وسقاياتها وحماماتها وخاناتها كما استقدم على بن يوسف المهندسين الأندلسيين لبناء قنطرة (تانسيفت).

ثم جاء الموحدون فاستطاعوا بفضل ما أبدعوه من روائع تبوؤ المقام السامي في تاريخ الفن الإسلامي، لا سيما في عهد يوسف الذي عاش في إشبيلية حيث زينها بأروع البنايات والمؤسسات العمومية ثم جاء ولده يعقوب المنصور، فكان أبدع بناء في تاريخ المغرب الفني وقد تجلت هذه البدائع خاصة في إشبيلية والرباط ومراكش ومناراتها (خيرالدا وحسان والكتبية) وأصبحت مراكش ببناياتها وقصورها وحدائقها أشبه ببغداد في الشرق كما أشبهت مدينة فاس دمشق في روائها الفني وطبيعتها الخلابة.

وقد خلف بنو مرين الموحدين في الربوع الإفريقية فكان للفن المريني ميسم خاص إذا قورن بالفن عند (بني عبد الواد) في تلمسان والحفصيين في تونس في حين واصل بنو نصر في غرناطة تقاليد الفن الأندلسي.

غير أن الطابع العام لم يتغير وكذلك الاتجاه الفني الذي انصرف عنه بنو الأحمر إلى زخرفة القصور في حين تجلى عند المرينيين في إقامة المدن المحصنة والمساجد والمدارس.

وقد لاحظ ابن مرزوق في مسنده أن إنشاء المدارس كان في المغرب غير معروف حتى أنشئت (مدرسة الحلفائيين) بمدينة فاس (مدرسة الصفارين) عام 760هـ ـ ثم (مدرسة العاطرين) و (مدرسة البيضاء) ثم (مدرسة السهريج)، ثم (مدرسة الوادي) ، ثم (مدرسة مصباح) .. ثم إنشأ أبو الحسن في كل بلد من بلاد المغرب الأقصى وبلاد المغرب الأوسط مدرسة، فقامت عند ذلك مدارس لإيواء الطلبة في تازة، ومكناس، وسلا، وطنجة وسبتة، وانفا وأزمور، وآسفي وأغمات ومراكش والقصر الكبير والعباد (تلمسان) والجزائر وقد أقام بنو مرين كذلك « من آسفي إلى جزائر بني مزغانة وأول إفريقية محارس ومناظر إذا ظهرت النيران في أعلاها تتصل المراسلات بينها في الليلة الواحدة أو في بعض ليلة».

ولكن ما هي ميزات الفن المريني؟ إن الجامع الكبير في تازة وكذلك مسجد أبي يعقوب المريني في وجدة يحتفظان أحيانا بتلك الفخامة التي يتسم بها الفن الموحدي ، ولكنهما يضيفان رقة الأشكال وتشعب الرسوم وتداخل التسطيرات والتوريقات والمقربصات والزليجات، ويلاحظ في المدرسة العنانية بفاس تشابه واضح في الهندسة والترخيم مع مدارس الشرق.

وهذه المدرسة هي مدرسة ومسجد في آن واحد مجهزة بمنارة ومنبر للجمعة ذات ثلاث عشرة مع الطوس (شعار كل ساعة فيها أن تسقط ضجة في طاس وتفتح طاقات).

ومن خواص الفن المريني النقش على الخشب والادهان البديعة والشماسيات الملونة والنحاس المموه وترصيع المنارات بالزليج.

أما في عهد السعديين الذي بدأ الفن المعماري يتحجر فيه نسبيا فإنه يمتاز (بقصر البديع) الذي وصفه

(الأفراني) بأنه يفوق قصور بغداد روعة وجمالا ورغم هذا التحجر لا يمكن أن يعتبر هذا الفن سوى امتداد للفن المغربي الأندلسي مع مميزات جديدة، حيث أن المنصور الذهبي استقدم الصناع والمهندسين من مختلف البلاد وحتى من أوربا.

ومن المآثر السعدية الباقية بعض مساجد مراكش (المواسين والقصبة، وباب دكالة) وقبور السعديين الرائعة وجناحان في جامع القرويين.

وقد كفل العلويون امتداد هذه التقاليد الفنية ، فجهز مولاي رشيد مدينة فاس بالحصون على غرار بني مرين وأقام مدرسة الشراطين.

أما هندسة المساجد، فقد كانت مزيجا من هندسة الدول السالفة.

ومن حيث هندسة البناء الدينية يظهر أن الفن المسيحي لم يترك أثرا يذكر في البلاد حيث أن المغرب نقل عن المشرق طريقته في الزخرفة التي تزدان بها مساجده ومختلف مؤسساته الدينية وهي الطريقة الإسلامية التي أثارت إعجاب مهندسي الكنائس الرومانية في فرنسا، وظهرت آثارها فيما شيدوه بها من معابد خلال القرون الوسطى.

نعم يقال أن ذلك الإشعاع الفني الإسلامي لم تتعد آثاره نطاق الجزئيات(ريكار)، ولكن كم يكون فن القرون الوسطى المسيحي جافا وباهتا كما يقول الأستاذ ريكار نفسه لو أنه خلا من هذه الجزئيات ومن روعة ألوانها وجمال خطوطها.

وأول مملكة عربية تركزت في المغرب هي مملكة (نكور) الواقعة بالريف على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وذلك في عصر الوليد الأموي بإمارة (صالح ابن منصور الحميري).

وقد غزا الإسلام منذ العقود الأولى للفتح قلوب صنهاجة وغمارة ، فاتجهت الجهود إلى بناء رباط في عهد الأمير(سعيد بن صالح) يحتوي على مسجد بمرافقه يحتوي تصميمه الهندسي من جامع (الاسكندرية) وكان الأسلوب المعماري بسيطا تبعا للفن الشرقي الإسلامي الذي كان لا يزال إذ ذاك في فجر انبثاقه ، فجامع عمرو بن العاص (عامل مصر) مثلا خال من كل زخرفة وتنصيق كالقربصة والنقيش الخشبي والمرمري وسائر العناصر المعمارية الدقيقة التي امتاز بها الفن العربي في العصور التالية.

ومن هذا الطراز مسجد (أغمات غيلانة) الذي أسس عام 85 هجرية والذي يظهر أنه أول مسجد بناه المسلمون بالمغرب بعد أن حولت المعابد التي بناها المشركون إلى مساجد وجعلت المنابر في مساجد الجماعات (1)، وبدأت إفريقيا تتطور روحيا وفنيا على نسق الشرق الإسلامي.

وقد لاحظ الكاتب الفرنسي (جورج مارسي) وهو من كبار مؤرخي الفن الإسلامي ـ أن بلاد البربر أسست منذ القرن السابع الميلادي، فكانت عبارة عن مرحلة في الطريق الكبرى التي تصل الهند بجبل (البرانس) بإسبانيا والتي يطرقها علاوة على رسل الخلفاء وسفرائهم ثلة من الحجاج والطلبة والفنانين والتجار(2)فلا يسعنا والحالة هذه أن نستهين بآثار عهد الإسلام المستديمة والمنبعثة بواسطة هذه المسالك، ومن ابرز مظاهر هذا الإشعاع الفني انبثاق مساجد وجوامع تنسم بطابع عربي أصيل وتوجد خاصة بإفريقية العناصر الأولية للفن الإسلامي.

ويمكن أن نعتبر مدينة فاس أول مركز عربي تفتق في البلاد المغربية، وأصبح بعد ذلك حسب كوتيي مظهر إعجاز في ميدان التكيف بالطابع الشرقي ذلك أن الفن اتخذ مناهج جديدة منذ العصر الأموي في كل من الشرق الأدنى والمغرب العربي بفضل مرونة حساسية العرب ومداركهم الإبداعية ، فهناك عوامل حدت العرب في الأندلس والمغرب وكذلك بمصر إلى الاستحياء في زخارفهم من معطيات الهندسة وهذه العوامل هي إهمالهم للأشكال والصور المستمدة من الطبيعة وتعمقهم في دراسة الرياضيات وسعة مواهبهم وأذواقهم.

وقد تبلور هذا الاتجاه مع مرور الاعصار وتهذيب أطرافه ورقت حواشيه وتنمقت معالمه.

وكان لفاس أثرها القوي حتى في إفريقيا، وبذلك أمسى مهد الإسلام تابعا لمدرسة برابرة الغرب الإسلامي (3)، ويرجع فضل هذه النهضة إلى المولى إدريس الثاني الذي أمتد حاضرة العلم بأولى مؤسساتها.

وقد أقام المرابطون عددا كبيرا من المؤسسات الدينية في المغرب الأوسط جوامع جزائر بني مزغنة وندرومة وتلمسان (4)، وكذلك في المغرب مدرسة الصابرين بفاس وجامع ابن تاشفين بمراكش(5)، وتدل الحفريات الأثرية الأخيرة على أن في الإمكان تحديد موقع هذا المسجد العتيق في وسط المدينة وقد كشفت مصلحة الفنون عن قبة مرابطية هي (قبة البردعيين) قرب (جامع ابن يوسف) بمراكش.

أما في فاس فإن جامع القرويين المؤسس عام 245هـ قد وسعت جنباته في عهد المرابطين على الشكل الذي ما زال عليه إلى الآن كما يتجلى ذلك من الوصف الوارد في (القرطاس) و(زهرة الآس) وقد بني جامع القرويين طبقا لتصميم أصيل ، فصحونه موازية للقبلة على غرار(مسجد الشرفاء) الذي بناه (المولى إدريس) بفاس وكذلك (جامع ابن طولون) بالقاهرة وجامعي بعلبك ودمشق.

والمواد الأساسية للبناء كانت تشكل في القرن الثالث الهجري من الأجر والجبص والطوب والطوابي فسور اجراوة(6) مثلا بنى بالطوب عام 257هـ، وكذلك (رقادة) بإفريقية عام 294 والبصرة المهدمة عام 368هـ ، هذا بينما استعمل البناؤون الجص والمرمر والأجر في جامع القرويين لدى تجديد بنائه عام 252(7)هـ على يد الأندلسي محمد بن حمدون.

وقد أكمد المؤرخ الفرنسي طيراس (8) لدى حديثه عن الفن المرابطي أن عليا بن تاشفين فاق والده بكثير في المؤسسات المعمارية مع أن يوسف نفسه كان من كبار البناة والمؤسسين وقد اندثرت أعلام جميع ما أقامه من قصور ومساجد في مراكش باستثناء قبة البرادعيين (قرب جامع بن يوسف) ومسجد تلمسان (عدا منارته) ومعظم أروقة جامع القرويين الزاخر بروائع الفن الأندلسي المقتبس طبق الأصل من الفن الأندلسي بما كان ينطوي عليه في القرن الخامس الهجري من رقة ورشاقة وروعة زخرف ومع ذلك فإن إسهام المرابطين في الفن كان مهما لا يخلو من تجديد، فالفنان لا يمكن أن يستسيغ ويقتبس لا ما تمكن تقريبا من الكشف عنه (9)، ولنا على ذلك دليل قوي في النفوذ الشامخ الذي بسطه المرابطون في الأندلس وإفريقية، وذلك في العمل البناء الذي حققوه في هذا الجزء من المغرب الإسلامي وقد لاحظ (كودار)(10) عن حق أن إقامة المرابطين لصروح أكبر امبراطورية أسست في العالم حيث امتدت من الأندلس على (جزر الباليار) إلى (نهر الميل النيجر) لتتم لدى الفاتح المرابطي عن تفتح مدارك قوية.

وبعد انهيار دولة المرابطين اعتلى اريكة العرش زعيم المصامدة الموحدين (المهدي بن تومرت) المنحدر من الأطلس الكبير، ثم خلفه (عبد المومن بن علي) الذي وصفه بعض المؤرخين الأجانب بأنه أعظم شخصية بدون منازع طوال القرون الوسطى البربرية.

إن قادة الموحدين الذين ركزوا للمرة الأولى وحدة الإسلام السياسية من حدود (قشتالة) إلى (ليبيا) قد ساهموا في تأصيل نوع من التوحيد بين عناصر الفن الإسلامي في المغرب(11).

وقد استمر نفوذ الموحدين أزيد من قرن، كان لهم في غضونه أعمق الأثر في عدوة الأندلس المترامية الأطراف، فانتصار يعقوب المنصور في الأندلس قد أضفى على الفن طابعا خاصا وحقق بتساوق مع مدرسة القيروان التجانس الفني بين الشرق والغرب.

وقد احتل الموحدون في تاريخ الفن الإسلامي مكانة مرموقة تفوق ما كان للمرابطين في هذا الحقل، وذلك بالرغم عن معارضة المهدي بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية لبعض مظاهر هذا الفن كالموسيقى والسماع والزخارف والنقوش.

وكان ابن يوسف هذا يقطن في (إشبيلية) التي زخرف معمارها بأبهى وأروع مما زين به حاضرة مراكش ، أما ولده (يعقوب المنصور) فإن بدائعه الفتية تشهد بأنه أورع في العصر الموحدي(12) مثال ذلك المؤسسات المقامة في إشبيلية والرباط ومراكش.

وبفضل الموحدين تجلى القرن السادس لبعض علماء الآثار كعصر بلغ فيه الأوج في القسم الغربي من العالم الإسلامي (13)، وقد شرع (عبد المومن) في آن واحد في بناء مسجد (تازنو) والمدينة نفسها، وكذلك مسجد (تينمل) مهد الدولة الموحدية الذي لم تبق منه سوى معالمه ، أما في مراكش فإن (كتبيته الأولى) هدمت ، وقد تمكنت مصلحة الآثار الإسلامية والفنون الجميلة من الرسم الأول لهذا المسجد، ثم

بنى أولاده (الكتبية الحالية) محاذية للأولى، ومتوجهة بدقة نحو القبلة ، غير أن جانبا من هذه البنايات لم يتم إلا في عهد يعقوب المنصور.
وتبدو الهندسة المعمارية الموحدية في أجلى وأجل معالمها في مساجد مراكش وحسان، (بالرباط) ومرصد الخالدة بإشبيلية(14).
ففي (منارة الكتبية) توجد طبقات متوالية من الغرف المقوسة السقف تصل بينها درج مركزية لا مرقاة لها ويلاحظ وجود نفس التصميم في كل من (الخالدة) و(حسان) ، فالجدار مطلية بجص أصفر كلس أي ضارب إلى اللون الرمادي ، وما زال هذا التسليط جاريا به العمل في مراكش الآن وتنعكس على صفحته تموجات وضاءة تنسل داخل المنارة من النوافذ المفتوحة في عرض الحائط وتؤدي الدرج آخر المطاف إلى الجزء العلوي من المتذنة المطل على المدينة وتستمد النقوش تسطيراتها من أشكال الزهر والسعف الجامعة بين القوة والرقة (15)، أما في الطبقة الأرضية فإن القبة مخروطة الشكل تبعا للأسلوب الإسلامي الإسباني ، بينما تحتوي القاعة السادسة والأخيرة على أغنى قبة ثمانية الهندام ذات ضلاع ومقريصات تتكون منها مجموعة هندسية رائعة، ولكن لا يلاحظ في مجموعة أجزاء المنارة أي عنصر جديد بنفس الأسلوب أو الهندام العام الشائعين في المغرب ، اللهم إلا إذا استثنينا ضخامة (برج المتذنة) وقمتها والتناسق الأصيل في الزخرف والتنسيق ، وقد أكد كل من (طيرس) و(باسي) أن (الكنيسة) أجمل معبد إقامته الخلافة الإسلامية في المغرب وأنه يعادل في جدة أسلوبه روائع (الجامع الكبير بقرطبة) والانطباعة التي ترتسم في نفس الزائر لهذا المسجد هي الروعة والتأثير البليغ ، ذلك أن مساجد الموحدين أكمل وأروع المساجد الإسلامية، فهي عبارة عن خميلة من الأساطين تتجلى في غضونها جلالة الصحون والأروقة الممتدة بين الأعمدة والحنايا وصفاء الأقواس في رسومها المتناهية والجناس الأخاذ بين الصحن المركزي والصحون الجانبية بأقواسها المقريصة وقببها البديعة وسقوفها الخشبية السامقة تتلألأ في منتهى الصحن الذي تخيم عليه أشعة خافتة وضاءة المحراب الناعمة وفصوص لعاج المصفرة في تضاريس المنبر ولمعان الفسيفساء، بحيث تنتشق من هذه المجموعة المعمارية الخلابة عظمة تجمع بين الوداعة والنعومة، فجامع قرطبة رغم سعته لا يتسم بنفس الطابع من التجانس والتناسق ، ومع ذلك فإن عددا كبيرا من رؤوس الأساطين في (الكتبية) هو من أصل أندلسي ، فالأعمدة الأربعة التي تساند (قوس المحراب) من مخلفات (الفن الأموي) وتوجد أيضا في المسجد الموحدي بقصبة مراكش أعمدة أموية من الصعب وجودها ملتئمة في قرطبة نفسها، فجامع الكتبية يشكل (متحفا) حيا للأعمدة الموحدية التي ينيف عددها على الأربعمائة والتي ما زالت تحتفظ بأصالتها المتجلية في عبقرية الفنان الأندلسي الموحدي ومهارة يد الصناع وقد اكتسى في بناء رؤوس الأعمدة غلالة من الخصب الذي لا ينضب معينه ولم يسبق له نظير في (الغرب الإسلامي) ، ولن يسمح الزمان بمثله(16).
أما منبر (الكتبية)، فقد تحدث عنه (ابن مرزوق) في(مسنده) (17)، فأشار على ما أكده أهل الفن من جودة وإتقان في ترصيع منبري (جامع قرطبة) ومسجد (الكتبية) في حيتان أن المشارقة لا لعلم لهم بفن النقش على الخشب برقة وأناقة، ويرجع تاريخ صنع هذا المنبر إلى (عبد المومن بن علي)(18).
ويرى كل من (طيراس وباسي)(19) ، أن هذا المنبر هو أجمل منبر في الغرب الإسلامي، بل أبهى وأروع منبر في العالم الإسلامي أجمع وما زال قائم الذات إلى عصرنا هذا في (الكتبية) إلا أن بعض في كتابه عن (الموحدين) (ص 128) إلى (Milie ميلي) أجزائه تميل إلى التداعي ، وقد تعرض المنارات الثلاث، فذكر أن قيمتها لا ترتكز على ضخامتها وتوازنها فحسب، بل أيضا على فخامة هندامها ونسبها الوافية بمقتضيات الأناقة مع بساطة في الزخرف والنقش وأصالة في الذوق الذي يحدق بها ويحويها دون مساس بوحدة هذه المجموعة التي تسري في معالمها آثار السلطان المؤسس لها محي الدين وحامي التقاليد. بل مدعم الإسلام في ربوع المغرب.
وقد ازدهرت مظاهر الحضارة والعمران في عهد بني مرين الذين أصبحوا أقوى ملوك إفريقيا(20)، إذ بالرغم من محدثهم الصحراوي، فإن هؤلاء الرجال استطاعوا بفضل اتصالهم المزدوج ب(بني نصر)

ورثة الحضـارة الأندلسية وبالموحدين التكيف والانسياق في مجرى الحضارة تبعا للمقتضيات المدنيـة مع استمداد من معطيات الفكر الإسلامي والمجالي الطريقـة في التجديد ، وقـد تبلور اتجاههم في إقامـة المدارس المحصنة والمساجد وقباب الأضرحة والفنادق المزخرفـة والمدارس الفخمة التي أضفت على المغرب المريني طابعا خاصا من الروعـة والبهاء.

وقد لاحـظ الأستاذ (ألفريد بيل) عن حق أنه خلافا لتقاليـد الشرق كان الملوك في طليعـة من تبني تأسيس المعاهـد، في حين تكفل بذلك الوزراء في المشرق(21).

وقد اتسمت هـذه الحركة المعمارية بطابع ديني في كثير من الأحايين حيث أقام المرينيون مجموعة رائعة من المساجـد في تازة ووجـدة (22) وتلمسان (23)، وقـد تم ذلك خاصة في عهد أبي الحسن بفاس والمنصور (قرب سبتة) وطنجة، وسلا ومكناس ومراكش، كما أقيمت معابـد حول أضرحة الملوك مثل (مقابر المرينيين في شالة بالقرب من رباط المجاهدين) حدا الملوك منذ عهـد (أبي يوسف) إلى عهد (أبي الحسن) إلى اختيار هـذا الحدث الطاهر، وقـد أضفى أبو الحسن على هـذه الأضرحة السلطانية مسحـة الروعة والجلال بتسويرهـا وزخرفتها وإقامـة مسجد ثان حولها، وكـان هذا الأمير إذاك في طليعة زعمـاء الإسلام بالمغرب حيث توحدت إفريقيا الشماليـة لأول مرة منذ عبد المومن الموحـدي تحت راية أمير واحـد من (قابس) إلى (المحيط الأطلنطيقي)، وبلغت الدولـة المرينية أوج عظمتها كما بلغت حضارتها قمة روعتهـا وأمسى أبو الحسن ، كما يقول أندري جوليان أقوى ملك في المغرب خلال القـرن الرابع عشـــر(24).

وفي عهد المرينيين أسست زاوية شالة(25) التي تعبد فيها الشاعر الوزير ابن الخطيب السلمـاني والتي أضافها (أبو الحسن) إلى جناح الأضرحـة بهذه المدرسة الأثرية وهي بساحتها الداخلية وصهريجها وأروقتها وغرفها الشبه بمعهد تتجلى فيه نفس المعالـم الزخرفية المدرسية كالترخيم والنقش والزليج والفسيفساء، والتبليط المرمـري، وقد بنى (أبو عنان) الزاوية النساك) بسلا التي ما زالت ببابهـا المنحوتة من الحجـر البديع قائمـة إلى الآن مع بقايا غرفها الثلاث ، حيث كـان يقطن (شيخ الزاوية) وطابقها الأول وصحـن يتوسطه صهريـج ويحيط بـه أحد عشر مرحاضا للوضـوء، وتعتبر المدارس المرينية مساكن للطلبـة ومزكزا لدراستهـم التي كانت تتابع في المساجـد القريبة منها وأحيانـا كانت المدرسة نفسها تحتوي على مسجـد صغير بمحرابه ومنارته.

وقد رسـم التصميم العام لهذه المدرسـة المغربية منذ القرن الخامس الهجري ، فهنالك صحن تقوم في جوانبه الثلاثـة سلسلة من البيوت، وفي الجانب الرابع قاعـة للعبادة وتقوم فـي الطابع الأول في بعض الأحايين مجموعات أربع من الغرف تشرف على الصحن الداخلي.

ويمكن أن تعتبر توافـر المدارس والمعاهـد في عهد المرينيين بمثابة رد فعـل ضد الحركـة الدينية الموحديـة، وذلك بإقرار برنامج يهدف إلى نشر آراء جمهرة أهل السنة الذيـن نصب بنو مرين أنفسهم للدفاع عنهم وكان المرينيون متضامنين في ذلك من جميع طبقات الصوفيـة التي ساندتهـم في دعم هـذه السلفيـة.

وقد أسست أول مدرسة مرينية عـام 670هـ بأمر من أبي يوسف(26) وهي تحتوي على مسجـد ومنارة وهي المؤسسـة الوحيدة التي يرجـع تأسيسها على هـذا القرن.

وفي القرن التالي أقيمت مجموعة من المدارس منهـا مدرسة فاس الجديد عام 720هـ (وهي تضم مسجدا وصومعـة ومدرسة العطارين ثم مدرسة الصهريج الكبرى)، ومدرسة السباعيين (الصغرى) وكانتا متصلتين ثم أخيـرا المدرسة المصباحيـة(27)، هـذه المدارس الثلاث الأخيرة بنيت بأمر من أبي الحسن الذي زود بالمدارس كبريات مدن المغربيـن الأقصى والأوسط (تازة، ومكناس وسلا وطنجـة وسبتة وأنفا وأزمور، وآسفي وأغمات ومراكش، والقصـر الكبير، والعياد بتلسمان وعاصمة الجزائر) ، أما ولده أبو عنـان فإنه أسس المدرستين الحاملتين لاسمه بفاس ومكناس.

ويلاحظ أن هـذه المدارس كانت تشتمل أول الأمر على منـارة وتتجلى كمسجد علاوة على ميسمها كمأوى

للطلبـة، وكان تصميمها مزدوج المعالـم عبارة في آن واحد عن مسجد مدرسي (كالقرويين) وعن جناح للسكنى، ثم تبلورت في التصميم بعد ذلـك مظاهر المدرسة، فألغيت الصومعة (مثل مدرسة الصهريج) ثم تقلصت مساحـة المسجد الذي أصبح لا يعدو قاعـة كبرى للصلاة دون زخرفـة خاصة، وحتى المحراب صار يقـام رمزيا في شكل قوس أصم محـاط باسطوانتين دقيقتين.

وقد استمـر هذا الاتجاه فأسقط المحراب تمامـا بعد بضع سنوات من (المدرسة المصباحية)، إلا أن (مدرسة العطارين) وهـي آخر مدرسة بناهـا أبو سعيد تحتوي على محراب، ولعل ذلك راجـع لضرورة تبرير مزيد الزخرفة والنقش (28) بمظهـر ديني خاص. كمـا أن مدرسة سلا احتفظت بمسجدهـا ومحرابها نظرا لصبغتهـا الاستثنائية كمركز صوفي لا يحتـوي على أيـة غرفة لسكنى الطلبـة (ومدرسة أبي عنان) في مكناس تمثل مرحلـة انتقاليـة بين نوعين من المدارس يرجـع عهدهما لأبي الحسن وولده أبي عنان (مسجد مربع وأروقـة في الجوانب الثلاثـة من الصحن)، أمـا (المدرسة العنانية) بفاس فهي تتسـم بهيكلها الضخم وروعتها الأخـاذة لجامـع مزود بمنـار ومنبر لخطبـة الجمعة.

ولنضرب مثلا للفن المريني الرائـع ببعض المآثر التي ما زالت قائمـة برباط الفتح ومنها (الجامع الكبير) الواقـع قرب (باب شالة) الذي تحـده في الجنوب الشرقـي مقبرة تمتد إلى السور الأندلسي ، وقد كتب على إحـدى أبوابه تاريخ 1299هـ (1882م) وهو تاريخ تجديد البنـاء في عهد الحسن الأول ، كمـا أن لوحـة التحبيس المرينية وهي صفيحـة مربعة من الرخـام مغروزة في إحدى الأساطين المحيطة) بمكان العنزة هي نفسها التي كانت على ضريح السلطان أبي الحسن بشالة، ونقلت إلى المسجد في عهـد (مولاي اليزيد) العلوي إلا أنهـا لا تشير إلى الجامع الكبير، كما يوجـد (المارستان العزيزي) قبالته، وقد أدخـل جلالة الملك المقدس المرحوم محمد الخامس، على المسـجد عدة إصلاحات وقد اختلف المؤرخون في تاريخ بناء هذا المسجد، فأكد مؤرخ سلا (محمد بن علي الدكالي) أنه من مؤسسات الأندلسيين الذين وردوا على المغرب في عهـد السعديين أي في القرن الحادي عشر مستندا إلى مـا استنتجه من كتاب «وصف إفريقيا» للحسـن الوزان من عدم وجود أي أثر لبنـاء بالرباط في عصره أي في القرن العاشر ، إلا أن مؤرخ الرباط محمد بوجنـدار(29) يرجح أن المسجـد من مآثر المرينيين ، ويعلل ذلك بوجود المارستان العزيزي قبالتـه، ويكون إحدى الأبواب وقد رممت في عهد السلطان المريني أبي الربيع وهي وجهـة سديدة وإن كانت التعديلات اللاحقـة قد غيرت معالم الأصل ويبلغ عرض المسجـد على طول جدار القبلة 47،5 م، ويزيـد عمقه بمتر واحد على عرضـه بإدراج مقصورة الإمام ، إلا أن شكله الهندسي غير مربع نظرا لعـدم تساوى أضلاعـه، أمـا مساحته البالغة 1800م،م فإنها تجعل منـه أعظم مسجـد بالرباط بعد (جامع السنة) وهو يحتوي على سبعـة صحون موازيـة للقبلة وعشرة عموديـة أما الساحـة فشكلها مربع منحرف عرضـه أكبر من طوله تحيط به ثلاثـة أبهاء أقيمت في أحدهـا (مقصورة للنساء) وبالجانب الشمالي الغربـي (المنارة) وللمسجـد ستة أبواب وعلى طول جدار القبلة عـدة مرافق تتصل بفرع للمكتبـة العامة بالرباط، يفصل اليوم المسجد عـن المقبرة ـ وهذه المرافق هي مستودع المنبـر ومقصورة الإمام وجامـع الجنائز، أمـا الأقواس فإنها ذات أشكال وأحجـام مختلفة ، إلا أن الحنايا التي يستنـد إليها الرواق أمـام المحراب تلفت الأنظار بميزاتهـا الخاصة إذ هي عبارة عن حنايا مفصصة قد نحتت فيهـا قوسيات تصل إلى ثلاثـة عشر متشابهـة عدا قويس الانطلاق وقويس الانفتاح ، أمـا الأقواس الأخرى فمعظمها حنايـا مكسورة وحدويـة (على شكل حدوة الفرس أي نعله) أو مشرعـة (أي سهمها أكبـر من نصف الانفتاح)، كمـا أن معظم السطوح ذات انحدار مزدوج في شكـل برشلات، أو جملونيـات دون قرميد ولا تليق، أمـا المحراب فإن قوس انفتاحـه حدوي الشكل كنعل الفرس الحديدي متقارب المركزين غير بارز الكسر يستنـد إلى عضادتيـن عاليتين.

وقد ازدوج بقوس آخـر خارج عن المركز في جوف قد نحتت نقوش رائعـة في جيبـه اللامـع وعلته قبة مثمنـة بنفذ منها النور من ثغرة مثمناتهـا مع المجموع.

أما (الصومعة) فإنها مربعة الشكـل تبلغ أضلاعها 5،10م وقد زيـد في ارتفاعها عام 1358هـ 1939م، فبلغت من العلو 33،15م، بينمـا لم تكن تصل من قبل على أكثر من 27م وتحتوي الصومعـة على ست

غرف مربعـة الواحـدة فوق الأخرى تغطيها أقبية متصالبة الروافد تؤدي إحداهـا إلى مخدع الموقف الواقع فـوق المصرية (أي العلية وهي من مصطلحات المغرب الأقصى(30) وينفذ الضوء إلى دورات الدرج من ثغرات واسعـة مقوسة وملتويـة في انحناء مستقيم، ويتسم المجموع بطابع البساطـة الذي يزيده روعة، أمـا ملحقات الجامع الكبير فإنهـا لا تمتاز بأهمية خـاصة، فإلى جانب ممر ضيـق يؤدي إلى (جامع الجنائز) .على طول جدار القبلـة توجد مقصورة الامام، وهي تضم غرفتين تتصل إحداهما بمستودع المنبر
وإذا استثنينـا النحت على الحجر في خصوص الأبواب، فإن النقش على الجبس يتوافر في المحراب وفي الوجه الداخلي للباب الكبرى وفوق الحنايا المفصصة أمام المحراب مع رسوم زهريـة متكاتفة تحيط بها خطـوط هندسية وأنضاد متراكمة من الواردات بين الأقواس دون أصباغ مع ضالـة النقوش الخشبية وتبرز في مواضع أخرى سعفيات (موردة) أو كتابات بالخـط النسخي، أمـا المنبر فهو من صنع علوي عادي برسومه الخشبيـة المنحوتة على لوحات (مأطورة) ، تلك صورة عن الجامـع الكبير كما هو الآن والبابان الشارعتـان إلى زنقة (باب شالة) قد أضيفتا كمنفذ خاص إلى رواق النساء، وكذلك الباب المؤديـة إلى زاوية سيدي التلمساني والفسقيتان الفوارتان في البهـو الجديد شمالـي غربي الصحن ومن الزوائـد الطريفة في المسجـد نقوش المحراب ورواق الجنائز وترخيمات بعض الحنايا مما حفظ للجامـع هيكله العام دون كبير تعديل ، ويظهـر أن الجامع لم يكن فيـه أكثر من خمسة صحون طويلة مركزية بدل عشرة بجانب الصحون السبعة الموجودة الآن، وكانت المساكـن تحيط به من جهتين ، وهـذا التخطيط متناسق الأجزاء بالنسبة للتصميم الحالـي الذي يخلو نوعـا ما من التوازن والانتظام، أضف إلى ذلك ما كانت تمتـاز به الحنايا المفصصة والمكسورة والحدويـة من تنوع ويذكرنـا الهندام المعماري في الجامع الكبير بالمساجـد المرينية في تلمسان ، وخاصة في مدينة «العباد» حيث مدفـن (أبي مدين الغوث) فعدد الصحون الطويلة واحد فيهما مع ثمانيـة صحون موازية للقبلة هناك بدل سبعة بالرباط، ومن مظاهـر العتاقة في الجامع الكبير ضخامـة القواس المفصصة أمام المحراب وهي من خواص المساجـد المرابطية والموحديـة بكيفيـة عامة .مع وجودهـا أحيانا في عهد المرينيين كما هو الحال في جامع (فاس الجديد)
ولم يعد المهندس المعماري يستعمل هـذا النوع من الترخيمات في العصر العلوي وحتى بالنسبة لنقوش الحنايا يمكن التنظير بين المشبكات الهندسيـة في (الجامع الكبير) ومثيلاتهـا في منبر (المدرسة العنانية) بفاس وباب (العنانية) أيضا بمكناس، ومع ذلك فإن جامـع الرباط لا يوحي في مجموعه بنفس الارتسامـة التي يشعر بها الزائر لمدارس فاس ومساجـد تلمسان المرينية التي تمتاز بعدة ظواهر جزئيـة كبعض الأشكال الصنوبريـة (على شكل ثمرة الصنوبر) أو الزهيرات (أي زخارف نورية الشكل) تلك معالم تشهـد بأن الجامع الكبير يرجع تاريخه إلى العهد المريني، وذلك بالإضافة إلى بعض النصوص التاريخية التي تعـزز هذه النظرية لا سيما وأن مؤرخي العلويين مثل (الضعيف) و(الزياني) و(الناصري) لم يدمجوا هـذا المسجد في لائحة المساجـد العلوية وربما كانت المجموعة المركبة من المسجد والسقايـة والمارستان العزيزي هي نفس ذلك الثالوث الملحوظ في جميع المساجـد مع اعتبار أن هـذا المارستان كان مدرسة كما يدل عليه شكلـه، وهنا يجب أن نتساءل كما فعل الأستاذ كايبي (ص 199) عن تاريخ التعديلات والإضافات الطارئـة على الجامع الكبير ويمكن أن نقارن بين هـذه وبين المظاهـر المعمارية في (جامع مولا ي سليمان) بالرباط، وقد أسسه السلطان العلوي (مولاي سليمان بن محمد بن عبد الله (فالمنارتان متساويتـان في الأضلاع والترتيبـات الداخلية والنسق الفني واحـد في السطوح والحزات الجدرانيـة التي تنصب منها مياه العظر بدل الميازيب ، وذلك عـلاوة على تشابه بعض الأبـواب ويدعـم هذا الشبه الواضـح ما أشار إليه (محمد الضعيف) من أن السلطان مولاي سليمـان وجه من طنجة أحد أعوانـه لمخاطبـة (المعلم الحسن السوداني) فيمـا يجب انجازه من أعمال في جامع الرباط (31)، وهكذا يمكـن التأكيد بأن الزيادات العلوية في هـذا الجامع يرجع الفضل فيها على الملك الصالـح المولى سليمان الذي قـام بهذه .البادرة المثلى فوسـع المسجـد وجدد سطوحه
تلك هي المظاهـر الجوهرية التي يمكن أن نستخلص منها صورة عن الفـن المريني الذي بدأت تتبلور فيه

.مجالي الازدواج بين الطابعين الأندلسي والمغربـي في شكل جديد سمي بالفن الإسباني الموريسكي
وبالرغم عن التأثيرات الأندلسية التي وسمت هـذا الفن، فإنه اصطبغ بسمة خاصة إذ عوضـا عما كان يذكي المهندس الأندلسي من رغبة في تحقيق التوازن بين القوى في المعالم المعماريـة هدف المهندس المغربي إلى ضمان متانة الهيكل ، بالإضافـة إلى ما كان يشعر به من حاجة إلى مزيد من الزخرفة والتنميق ، وهـذا هو الطابع العام الذي يتسم به مجموع الفن الإسلامـي من تسطيرات ناتئـة ومقربصات وتلوينات، علاوة على روعـة الهندام ، ورغما عمـا يتسم به الفن المعماري الذي بلغ في العصر المريني أوج عنفوانه من إيغال في التوريق والتسطيـر والنقش مع قلة توازن بين الأجـزاء، وعـدم جودة المواد فإن المجموع ظل كما يصفه المؤرخ أندرى جوليان واضح المعالـم متوازي النسب تتجانس نقوشـه تجانسا رائعا ضمن الحيـز الذي يملأه ، وهـذا بالإضافة على ما انطوت عليه الألوان من دقـة وجناس
كاملين(32)، وقد أشبـع الفن المريني شرقا وغربا بثروتـه التي لا تضاهي وروعتـه الطريفة الأصلية، .فكان فنا أندلسيا مغربيا تتناسق عناصره في (العدوتين)
وهـذا التناسق الفني يرجـع الفضل فيه على نشاط المهندس الأندلسي الذي كـان تأثيره ملحوظا في مجموع .(33)المآثر المعمارية
وكان للفنانين والمنتجين المغاربـة صيت رائع وحظوة لا باس بها حتى في الشرق ، غير أن درجـة النضج الذي بلغها هذا الفن كانت تنطوي على عناصـر انهياره ، فقد استنفذ كثيرا من قواه منـذ عهد أبي الحسن، .وحال قيام الفتن دون تحقيق أعمـال عمرانية كبرى بعد ذلك
وإذا كـان الفن قد استطاع الصمـود في نهاية العهـد المريني فما ذلك إلا بفضل العناصر الأندلسية التي هاجرت إلى المغرب، بحيث اصحب المغاربة منذ عهـد الوطاسيين عالة في كثير من الفنون والحرف على الأندلس(34)، مع ذلك فإن الفـن المغربي نشطت مقوماته العمرانيـة ظل محتفظا بجودتـه النادرة رغما عن انعدام الفخامة في مجاليه ذلك أن وفـرة الزخرفة وثراءهـا وروعتها انتظمت في إطـار من الوضوح والدقـة لا غبار عليـه، وكان المجهود الفني الـذي بذلـه المرينيون قد تقلص ـ كما يقول طيراس ـ في الذي .انهارت قوتهم العسكرية
وقد اتخـذ تدخل (السعديين) صورة ثوريـة ضد عجـز (الوطاسيين) عن إيقاف الحملة المسيحية وهبوب الإسبان لغزو المـغرب بعد سقوط المعاقل الغربية في الأندلس وقد تم احتلال سبتة (عام 818هـ)، فثارت ثائرة الأمة المغربية وطاف دعاة الجهاد في القبائل يحدون الناس إلى مقاومـة المغير، وقد تركزت هـذه الحركة التحريرية حول مراكـز إقليمية للتجمـع وهي (الزوايا) واستغل الشرفاء السعديون الموقف ، .فتزعموا هـذه الشعبية، ونصبوا أنفسهم قوادا للثورة
وقد عرف السعديون كيف يوجهون هـذا الحماس الشعبي الرائع الذي كـان يعززه العلماء والصوفية فاخرجوا العدو من (أكادير) و(آسفي)و (آزمور) و(أصيلا) و(القصر الصغير) وكللت سلسلة الانتصارات هذه بهزيمـة شنعاء مني بها البرتغاليون في (معركة وادي المخازن) التي فقدت (البرتغال) بعدهـا استقلالها السياسي طوال اثنتين وستين سنة، واندرج المغرب بفضل انتصاره الفذ في صف الدول .العظمـى تخطب وده بلاطات أوربا وتسعـى في الخطوة بمعونته
ومن المؤسسات الدينية السعدية (مسجد باب دكالة) الذي بنته (مسعودة المزكيتية) والدة المنصور وبتناسق في هـذا المسجد الأسلوب المريني (الصحن المربع) مع بعض معالم الفـن الموحدي مثل هندام القباب وبعد ذلك بخمـس سنوات أسس (جامع المواسين) بمرافقه من قاعـة الوضوء والحمام والمدرسة والكتاب (أي المسيد) والسقاية مورد الماء المخصص للحيوانات وتنم هـذه المظاهر الجزئية عن استمرار .تقاليـد العصور السالفة في الحقل المعماري
أما في جامع القرويين بفاس فإن السعديين بنوا قبتين في الصحن تتوسط كلتيهما خصة مرمرية شبيهـة بما .يوجد في (ساحة الأسود) بالأندلس
وقد أسهم السعديون في بناء مدارس صغرى مضافـة إلى المساجـد أو الزوايا، حيث توحـد مثلا في مراكش

عاصمة السعديين أعظم مدرسة بالمغرب (35) يرجع فضل تجديد بنائها إلى (الأمير مولاي عبد الله) وهي (مدرسة ابن يوسف) التي تستمد اسمها من الجامع المجاور لها، وقد بناها (أبو الحسن المريني)(36) ،. وكان أهم مأوى لطلبة جامعة ابن يوسف حيث تحتوي على نحو المائة غرفة

وقد لاحظ طيراس(37) أنه بالرغم عن الجهود التي بذلها كبار الأمراء السعديين فإنهم لم يسهموا في انبعاث الحضارة الإسلامية بالمغرب، ذلك أن المدينة والفن كانا متجهين نحو الماضي ، فلم تستطع بعض التأثيرات الأجنبية تعديل الأصول القديمة ولا تركيز بذور خلق جديد ، فالفن المغربي إذن هو حسب (طيراس) (فن خال من كل غض طريف تكتنفه رواسب الماضي)، غير أن صلات عابرة وغير مباشرة بالفنون الإسلامية الشرقية تحققت من جديد بفضل ما كان للسعديين من علاقة بالأتراك ، ولعل بعض هذه الآثار تتجلى في فن الطرز والنسيج والتجليد والتذهيب، وكذلك في بعض أزياء الرجال، لا سيما منها العسكرية نظرا لتأثر أمراء سعديين مثل (عبد المالك) الذي عاش في تركيا ببعض مجالي الحياة في هذه البلاد.

-*-*-

(1) المغرب لابن عذارى ، ج1، ص 37.
(2) مقدمة (كتاب الفن الإسلامي).
(3) (الفن الإسلامي) جورج مارسي ج2، ص 469.
(4) هذان الجامعان الأخيران هما نهاية في البساطة الخلابة، وهما خاليان من كل كتابة تتم عن مؤسسهما ، غير أن تأسيسهما يرجع في الغالب إلى ابن تاشفين (الهندسة المعمارية الإسلامية في المغرب مارسي ص 191).
(5) ورد في معجم ياقوت (ج6، ص 184) أن عدد الحمامات 180.
(6) تقع (جراوة) حسب الإدريسي قرب مليلية على مسافة ستة أميال من البحر (مختصر النزهة ص 54).
(7) وبنى أسواره (ابن الأشعث) عام 246هـ البيان لابن عذارى (ج1، ص83).
(8) تاريخ المغرب ج، ص 252.
(9) مقدمة كتاب الفن الإسلامي لمارسي
(10) في كتابه (وصف تاريخ المغرب ، ج ص 174.
(11) مارسي (الفن الإسلامي 105)
(12) مارسي الفن الإسلامي ج1، ص 303.
(13) الهندسة المعمارية الإسلامية في المغرب ص 200
(14) (يوسف هو الذي شرع عام 567هـ في بناء المسجد الأعظم بإشبيلية (القرطاس) لابن أبي زرع (طبعة سلا، ج2، ص 186).
(15) مجلة (هيسبريس) التي تصدرها كلية الآداب بالرباط (المجلد السادس، عام 1923، ص 107).
(16) طيراس وباسي (هسبريس مجلد 6، عام 1926، ص 107).
(17) مقتطفات نشرها ليفي بروفنصال ف يمجلة هسبريس عام 1925، ص 65.
(18) الحلل طبعة تونس 109.
(19) هسبريس مجلد 6، عام 1926، ص 169.
(20) راجع تاريخ إفرقيا الشمالية لأندري جوليان.
(21) الجريدة الأسيوية الكتابات العربية بفاس عام 1917 و 1918(ج10، ص 152).
(22) أبو يعقوب هو الذي بنى مسجد وجدة عام 696هـ حسب (القرطاس)، وقد لاحظ مؤلف (الذخيرة السنية) ص 150، أن أبا يوسف هدم وجدة عام 670هـ
(23) راجع مقتطفات (المسند لابن مرزوق في (هسبريس ، ج5، ص 32 عام 1925) حيث لاحظ ابن مرزوق أن الرحالين مجموعون على اعتبار هذا المسجد كجامع هو الأول من نوعه ، وقد أسس أبو الحسن مدرسة (هتين) التي اندرست معالمها منذ قرون.
(24) تاريخ إفريقيا الشمالية 1931، هـ ص 446.
(25) توجد لفظة الزاوية مكتوبة على الرخامة المرمرية وعلى خزف عثر عليه عام 1930 خلال الحفريات (الهندسة المعمارية الإسلامية ص 283).
(26) راجع «المسند» لأبي مرزوق |، مقتطفات ليفي برفنصال هسبريس ج5، ص 15، عام 1925.
(27) نص ابن مرزوق على أنها من بناء أبي سعيد في حين أن الكتابات الموجودة بها تدل على أن مؤسسها هو أبو الحسن (راجع الاستقصا ، ج2، ص 87 وكتابات فاس (الانفريد بل) ص 229.
(28) هذه المدرسة أبهى وأروع مدرسة من حيث الزخرف حتى في نظر الفنانين الأجانب (الهندسة المعمارية في المغرب ص 285).
(29) الاعتباط ص 114(مخطوطة المكتبة العامة بالرباط، عدد 1287).
(30) لا شك أن هذه التسمية ترجع لكون مصر هي التي عرفت في العالم الإسلامي بكثرة طبقات دورها، وقد ذكر المقريزي في خططه ، ج1، ص 334 و341 أن مساكن الفسفاط كانت من سبع طبقات.
(31) تاريخ الرباط للضعيف، (ص531، ج4
(32) تاريخ إفريقيا الشمالية ، ص 456.
(33) كان ذلك منذ المرابطين وقد لاحظ (الناصري) نقلا عن صاحب (الجذوة) أن المهندس الإشبيلي محمد ابن علي هو الذي رسم تصميم (دار الصناعة البحرية بسلا)، واستعمل الأساليب المعروفة بالأندلس (الاستقصا، ج2، ص11) كما أن نقل مياه (ودي فاس) لتزويد قصر يوسف بن يعقوب كان على يد مهندس إشبيلي اختصاصي في علم الحيل هو (محمد بن الحاج).
(34) كودار ، ج2، ص 461.
(35) الهندس المعمارية الإسلامية، ص 392.
(36) (الاستقصا) نقلا عن نزهة اليفرني (ج2، ص 36).
(37) تاريخ المغرب (ج2، ص 234).